الراعي والرعية ودورهما في مسار التاريخ في الفكر الاسلامي

أ.د. عطا سلمان جاسم
جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الانسانية

المقدمة

ذهبت النظريات الفلسفية في تفسيرها لحركة التاريخ والعوامل المؤثرة فيه عدة اتجاهات، كل منها يعبر عن نظرة وتصور صاحب النظرية وقناعته، ومع ان كل نظرية تكاد ان تكون مكملة للأخرى، أو تسد نقصاً فيها، إلا أنها تبقى مع ذلك ناقصة في طرحها ونتائجها، ولعل أحدى هذه النواقص اغفال الدور الأساس الذي تلعبه الرعية وعلاقتها مع الراعي في التأريخ واعطاء ذلك دوراً ثانوياً بالنسبة للعوامل الأخرى، مع اعترافها ان الانسان هو العنصر الأول في التاريخ فضلاً عن عاملي المكان والزمان، ولكن كل نظرية في طرحها لأسباب المتغيرات التاريخية حددت عاملاً رئيسياً وحسب اعتقاد صاحب النظرية – المحرك والمؤثر الأساس لها، هو الذي يؤثر على اتجاه الرعية وحركتهم، منها ما يرى ان صانعي التاريخ هم عظماء الرجال الذين يقودون امتهم – وهو التفسير البطولي الفردي – ومنهم من آمن بالتفسير الدوري للتأريخ، الذي ينكر أي دور للإنسان في صنع التاريخ. وآخرون آمنوا بالتفسير الجغرافي للتاريخ. حيث ان نشاطات الانسان تتحدد بالظواهر الجغرافية والمناخية، ويطالعنا في العصر الحديث اصحاب التفسير المادي الذي يرى أن النزعة الاقتصادية والمادية هي التي تشكل ركناً أساسياً في حياة الانسان ونشاطه، وآخرون ارجعوا العامل الاساسي الى التفسير الحضاري للتاريخ، ويعد ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ – ١٤٠٥ م) أول من كتب

في هذا الاتجاه، حيث يرى ان كل مجتمع ينشأ من البداوة ثم ينتقل بالتدريج انتقالاً بطيئاً الى الحضارة وغيرها من النظريات الفلسفية التي لا تخلوا من نقصٍ أو خللٍ لذلك تعرضت كلها للنقد والتحليل. والجدير بالذكر ان بعضاً من هذه النظريات ترجع بجذورها الى العصور القديمة، الى عصر الاغريق حيث حاول مؤرخيهم تفسير احداث التاريخ ومن ايام المؤرخ (توسيديس ٤٥٦ – ٢٩٦ ق.م) [١] والى عصر الانبياء والرسل، فما جاء في العهد القديم وكما سنرى ذلك لاحقاً – جذور التفسير الدوري للتاريخ، وهو لا يكاد ان ينطبق مع التفسير اللاهوتي للتاريخ عامة، والتفسير الاسلامي خاصة للتاريخ الذي يؤكد على الدور الجوهري الذي يلعبه الانسان سواءً كان حاكماً أو محكوماً (الراعي والرعية)، وإن دورهما واحد، لا يمكن فصل دور أحدهما عن الآخر، فهما تؤمان لا ينفصلان .

تناولنا في هذا البحث نبذة تاريخية عن دور الراعي والرعية في مسار التاريخ القديم، ثم في الكتب المقدسة. ثم تطرقنا الى العوامل المؤثرة في حركة التأريخ في الفكر الاسلامية وهما الراعي (البطل في التأريخ) و (الرعية).

اعتمدنا في دراستنا هذه على مصادر ومراجع ثانوية، ومن هذه الكتب المقدسة (العهد القديم، العهد الجديد، القرآن المجيد) فضلاً عن كتب الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية، ولعل الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي

(ت ٤٥٠ هـ) أشهرها، وكذلك (سراج الملوك) لأبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ) واعتمد البحث على كتاب التاريخ لليعقوبي (كان حياً سنة ٢٩٢ هـ) وهو من كتب التاريخ العام، ومن المراجع المعتمدة

المفصل في فلسفة التاريخ للدكتور هاشم يحيى الملاح وختاماً نرجو أن نكون قد وفقنا الى حدٍ ما في اعطاء البحث حقه ومن الله التوفيق

نبذة تاريخية : الراعي والرعية في التاريخ القديم وعرب الجاهلية

البطل حاكماً كان أم قائداً للمعركة عند عرب الجاهلية هو من يمتلك المقومات التي تؤهله للقيادة الصحيحة نحو المجد والنصر، ولعل أبرز تلك الصفات هي البطولة فضلاً عن الحكمة والحزم. وأدبيات العرب تشير الى أن هذه المؤهلات التي نالها الرجال واقترن اسمهم بالأبطال، تعدتهم الى النساء، حيث برز منهن من امتلكنّ هذه الصفات، وتمكن من قيادة قومهن، منها (رقاش) من طي التي كانت تغزو بقومها ويتيمنون برأيها وكانت كاهنة، وكانت مثار أعجابهم [٢]، كما أعجبوا بالكثير من الرجال لمؤهلاتهم المطلوبة التي يقتضيها قانونهم السائد، وحيث الضرورة تقتضي ذلك، فهم يرون ان " الف ثعلب يقودها أسد، خير من ألف أسد يقودها ثعلب" [٣] فالقوي يرفض الأمن والنظام ويقود قومه في الحروب ويدافع

عنهم خاصة وأنهم في بيئة صحراوية فرضت على سكانها البداوة والتوحش في تصرفاتهم[٤]، يستثني من ذلك والى حدٍ ما أبناء المدن المتحضرة المتسمة تصرفاتهم بالانفتاح الحياتي والفكري، ولا يعني ذلك تجاهل هذه المجتمعات لضرورة البطل التاريخي فهي بارزة وبقوة في العصور القديمة التي سبقت عرب الجاهلية، وزمن غلبة الوثنية في مجتمعات مستقرة، ولعل صورة الإله المعبود (البطل الإله)

أقدم أشكال البطولة وأشرف أركان الوثنية على رأي توماس كارليل (١٧٩٥ – ١٨٨١ م) وفي معرض تحليله لاختيار (أودين) بوصفه معبوداً لقدماء السويد والنرويج [٥]. والجدير بالذكر ان الحروب كانت تصور على انها حرب بين الآلهة، فقد صورت الحرب التي نشبت بين مدن (أوما ولكش) التي كانت نهايتها السلام بواسطة

(ميسلم) ملك كيش على انها حرب بين (شارا) ربة أوما و (ننكر سو) إله لكش[٦]. وكانت السلطة في هذا العصر للكهنة حيث كانوا يحكمون الناس بأسم الآلهة[٧]، وذلك قبل انتقال السلطة الى ممثل الإله الجديد في الأرض (الملك البطل) رسول الآلهة. ادعى لوكال زاكيري ان الإله (انليل) أرسله لحكم الأرض وأيده بنصر من عنده، لذا فإنه قاد حملاته وبسط سيطرته بالقوة على سومر، وزعم انه اجبر البلاد من البحر الأعلى (المتوسط) الى البحر الأسفل (الخليج العربي) على دفع الجزية، وقد استنجد هذا الملك بأرباب المدن الجنوبية الإنعام عليه بكل كرم بجنودٍ كثار [٨]. وهنا من الطبيعي أن تكون هذه الحروب تظاهرة دينية للجميع، لذا يتحتم على الرعية جميعهم الخروج لجلب رضا الرب، فلا خيار لهم إلا الطاعة والولاء للملك ممثل الإله ووكيله.

الراعي والرعية ودورهما في الكتب المقدسة :

الراعي (البطل) في التفسير اللاهوتي هم الرسل والأنبياء وهم ممثلو الإله (الله) في الأرض. تتفق بذلك جميع الرسالات السماوية وخاصة الثلاث (اليهودية، المسيحية، الاسلام) كما وإنها متفقة كذلك على خلفائهم بالحكم (الملوك أو الخلفاء الأبطال) وارثيهم في الحكم ومن ثم خلفاء الله في الأرض، ولكن هذه الشرائع تختلف فيما بينها. بالنسبة للدور الإنسان في مجال التاريخ، فاليهودية ترى ان مجرى الإنسان محتوم فيه، لا سلطة للإنسان على تبديله، ولا فائدة للإنسان من تعبه الذي يتعبه" ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس؟ دورٌ يمضي ودورٌ يجيء، والأرض قائمة الى الأبد والشمس تشرق، والشمس تغرب، وتسرع الى موضعها حيث تشرق [٩]" فكل الأحداث حسب هذه النظرية تدور وترجع الى نقطة البداية بحركة دائرية وهو ما يطلق عليه بالتفسير الدوري للتاريخ، حيث لا دور للإنسان بتغيير واقعه، ولا يغير من حاله " ما كان فهو ما يكون، والذي صنع فهو الذي يصنع فليس تحت الشمس جديد، إن وجد شيء يقال عنه [انظر هذا جديد !] فهو منذ زمان كان في الدهور التي كانت قبلنا .. [١٠]" فلا يمكن إذن ان نتوقع الجديد من ناحية، ولا يمكن اصلاح ما أفسده الدهر من ناحية أخرى " الأعوج لا يمكن أن يقوم ، والنقص لا يمكن أن يجبر [١١] ". ومع هذه النظرة التشاؤمية لدور الانسان، حيث لا أثر للإنسان في هذا الكون، بل هو أسير له، خاضع لمجرياته، لا أمل له فيها فهو كالحيوان بالبرية، بل أن الحيوان أسعد منه سجية" ماذا للإنسان من

كل تعبه، ومن اجتهاد قلبه الذي تعب فيه تحت الشمس؟ لأن كل أيامه أحزان وعمله غمّ. أيضاً بالليل لا يستريح قلبه. هذا أيضاً باطل هو. [١٢] " فالكل باطل، وحتى العوامل المؤثرة في حياة الانسان ونشاطه والمتحكمة في مصيره، خاصةً البيئة والمناخ هي عوامل لا دور لها، فما كتب من السماء هو مصير الإنسان، فالبشرية كتب عليها وحسب ما ورد في (سفر التكوين ، أولاد نوح) تشعبت من ذرية نوح الثلاثة، سام ويافث وحام، ولكن كتب على أولاد حام أن يكونوا عبيداً لأولاد سام ويافث لدعوة نوح على حام وابنه كنعان بجريرة حام [١٣]

" ملعون كنعان ! عبد العبيد يكون لإخوته " و " مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبداً لهم. وليفتح الله ليافث فيسكن في مكان مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم[١٤]" ولعل السؤال الذي يتبادر الى الذهن ما هو ذنب أولاد حام حتى يتحملوا وزر الخطيئة ويكونوا عبيداً مدى الدهر لبقية البشر، والله يقول : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [١٥]، ثم ان اختلاف الألوان بين البشر راجع الى تأثير المناخ والبيئة الجغرافية، وقد أقره مفكرو اليونان وفلاسفتهم القدماء كأرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) ، وابن

خلدون فيما بعد ، الذي اتشهد بأبيات شعرية قالها ابن سينا الحسين بن عبد الله (ت ٤٨٢ هـ – ١٠٣٦ م) [١٦] .

بالزنج حر غير الأجسادا ** حتى كسا جلودها سوادا
والصقلب اكتسبت ببياضها ** حتى غدت جلودها بصاضا

ومما هو أدهى من ذلك، ترى اليهودية ان جميع شعوب الأرض دونهم، لذا يجب إفنائهم لئلا تكون عليهم وحوش البرية [١٧] وهم وإن استجابوا لصلح بني اسرائيل، يجب أن لا يتركوا أن يعيشوا بأمن واستقرار، بل يسخروا ويستعبدوا، وإن لم يستجيبوا لدعوتهم، تحل اللعنة عليهم، فالكل وبأمر الرب لبني اسرائيل [١٨]. فهم شعب الله المقدس، المختارين من دون البشر (وقد اختارك الرب لكي تكون شعباً خاصاً فوق الشعوب الذين على وجه الأرض) [١٩] والشعوب ملك لهم وحيث تقسم بين اسباطهم بالقرعة [٢٠].

وأما بالنسبة للمسيحية ، فإنه ولعدم وجود دولة لها أيام عيسى (ع) ولقصر مدته التي بشر بها، فإن دعواته اقتصرت في حياته على النصائح وضرب الأمثال والحكم لأتباعه في سبيل الخلاص لهم والهلاك لعدوهم. ولكن بعد اعتناق الامبراطورية المسيحية [٢١]، وضرورة الدفاع عنها [٢٢]، توجهت

الأنظار الى الرعية ودعوتها للحرب بحجة إنها (عادلة ومشروعة) فهي جهادية من أجل الرب لذا تحولت دعواتهم الى حرب عدوانية فيما بعد، وبدوافع عنصرية ومادية عن طريقها توجهت الحملات الصليبية الى الشرق الإسلامي وبواسطتها أخرج المسلمون من الأندلس وكذلك انطلقت البعثات التبشيرية وما شابهها من اضطهاد وتنكيل.

العوامل المؤثرة في حركة التأريخ في الفكر الإسلامي :

في الوقت الذي أشارت فيه النظريات الفلسفية الحديثة الى دور البطل في التأريخ، سواء ذكر كعامل أساسي في التاريخ، كنظرية توماس كارليل، أو عامل ثانوي في مسيرة التاريخ، مع تأكيد هذه النظريات على العنصر الفعال الجوهري في صنع الأحداث، وحسب تصور النظرية، كنظرية العمران البشري لأبن خلدون، وفي العصر الحديث نظرية الفيلسوف الألمان جورج وليام فريدريك هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١م) على سبيل المثال، فإن كل هذه النظريات لا تنظر الى الرعية كعامل مؤثر لا غنى عنه في مجرى التأريخ ويؤثر في العوامل الأخرى، بل ان هذه العوامل هي التي تؤثر عليه، أما في الفكر الإسلامي فإنه نظر إليها على أنها الوسيلة والغاية في ذات الوقت، وفي مجمل حركة التأريخ وأحداثه، مع عدم تجاهل الراعي ودوره بصورة عامة، بل ان العلاقة بينهما كبيرة، ولا يكاد فصل دور الواحد منها عن الآخر. ويمكن تحديد العناصر التي تحدد حركة التأريخ في الاسلام بـ:

أولاً : القوة الربانية (الله تعالى) : الإله الأوحد، مالك الملك له ملكوت السماء والأرض وهو على كل شيء قدير ، مصدر الإلهام، بيده مصير الأكوان، الخالق لكل ما في السماوات والأرض، لذا

فرض على الجميع طاعته وعبادته، {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [٢٣]، وفي طاعته يتم الرضى الإلهي عنهم، فتزل عليهم البركات، وإن عصوه حل الغضب الإلهي فنزلت النقمة عليهم: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } [٢٤]، والعقوبات الإلهية قد تكون مباشرة، كما حدث لقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، أو غير مباشرة وذلك بربط المسببات بالأسباب، بتهيئة أسباب خرابها ودمارها، كشيوع الفساد في بلدٍ ما بتهيئة عوامله: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً } [٢٥]، فالمترفين من أصحاب المال والجاه هنا المفسدين.الذين يعثوا في الأرض فساداً حتى تختل قواعد الأمة وتضعف كيانها ويسود العداء أفرادها فتضعف وتهد قواعدها، فيسهل عندئذٍ خرابها ودمارها. والعكس صحيح إن كانت الأمة صالحة { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [٢٦]. فالحكم الإلهي هنا هلاك المجتمع الذي أهله ظالمون [٢٧].

ثانياً : الراعي (البطل التاريخي): قادة الشعوب والأمم والرسل والحكام وهم الأبطال الذين عرفوا متطلبات اللحظة الراهنة أو ما هو ضروري فيها على رأي هيجل [٢٨]. وعدا الرسل والأنبياء، قد لا ينطبق هذا الوصف على كل حكام الدولة، حيث لم تتوافر فيه الصفات المطلوبة في البطل، بل يكفي

بعضهم القول إنهم من اختيار الإله وحسب إرادته، وهو من حقه التصرف بما شاء، ولا اعتراض لأحد على ذلك.

والعظماء في الفكر الإسلامي يصنفون الى :

١. **الرسل والأنبياء** نواب الله تعالى في الأرض، مبلغين ومنذرين البشر من عواقب الأمور إن هم تمسكوا بكفرهم وشركهم وهؤلاء لا يمكن تقليدهم أو التشبه بهم، فهم أصحاب معجزات وقدرات استثنائية، كما أشارت الى ذلك الكتب السماوية وكتب التفسير وكتب السيرة النبوية والتاريخ العام وغيرها من المصادر. وقد يكون ما حققه الرسول (ص) من نجاحات وانتصارات بالقضاء على الشرك وتوحيد الأمة أعظم الانجازات المتحققة في التاريخ، بل يمكن عده صانع التاريخ الأول وأعظم شخصية عرفها التاريخ رغم الصعوبات والمتاعب الكثيرة.

٢. **الخلفاء والولاة :** وهم الحكام القوة المؤثرة في مسيرة التاريخ، وهم الأبطال الذين يمكن تقليدهم والحذو حذوهم، فهم بشر ليس إلا، ولكنهم يتركوا بصماتهم في التاريخ. ونظر إليهم في التاريخ الاسلامي على انهم خلفاء الرسول (ص) وبالتالي هم حبل الله الممدود في الأرض، فترتب عليهم نتيجة ذلك حراسة الدين وتطبيق منهجه وسياسة الدنيا وحفظ مصالح العامة. وتتوضح أهمية هؤلاء من تركيز تراثنا الإسلامي المتمثل بمؤلفاتنا التاريخية على اخبار هؤلاء دون الرعية إلا بعلاقة القادة بهم، يتمثل ذلك من عناوين كتبهم التي حملت عنوان (التاريخ) ولعل " تاريخ الرسل والملوك " للطبري محمد بن جرير (ت ٢١٠ هـ / ٩٢٢ م) الأشهر منها، غير إن المنعطفات التاريخية المتمثلة بمرحلة الضعف التي مرت على الخلافة والدولة وذلك

بخضوعها للنفوذ الأجنبي وتسلطها على الخلافة العباسية بدءاً من (٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) وما أعقبها من السيطرة البويهية (٣٣٤ هـ / ٤٥ م)، كل هذا دفع المؤرخين والمفكرين المسلمين الى توجيه أنظارها الى الرعية للوقوف والتضامن مع الراعي لإسناده ودعمه لتجاوز مرحلة الضعف والانهيار وانقاذ ما يمكن انقاذه، ولتنفيذ ذلك وضعت المؤلفات وصيغت النظريات السياسية المستشهدة بالقرآن الكريم وتجارب الأمم ومنها الأمة الاسلامية كما ورد في (تجارب الأمم وتعاقب الهمم) لمسكويه أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ – ١٠٣٣ م) الذي نحى في طرحه النهج التاريخي، في سبيل الوصول الى غايته، وهي الغاية ذاتها التي انتهجتها كتب الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية التي بدأت تترى تباعاً بطرح آراء مؤلفيها ونظرتها الى اسلوب الحكم الذي يجب اتباعه استناداً الى التعاليم الاسلامية ومنهجها دون اغفال الظرف الزماني والمتغيرات الحاصلة فيه، وكيفية التعامل مع الأحداث دون الإخلال بالتعاليم الاسلامية وحسب وجهة نظر هذه النظريات، حيث شرعنت لصالح الراعي بالدرجة الأساس، فبررت له الوسائل الكفيلة التي تحقق فرض الأمن والنظام، وهي بذلك قد اتجهت الاتجاه الديني في طرحها لأفكارها وآرائها، ولكن دون اغفال التاريخ في ذلك، خاصةً أخبار الرسول (ص) والسلف الصالح في ذلك، لتعزيز آرائها. ولعل (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) للماوردي (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) أول واشهر المؤلفات هذه، وهو واضع نظريته في الخلافة التي سماها بالإمامة، والتي ابتغى منها وضع الحلول الناجعة لتجاوز المحنة والانكسار. ومن ضن طروحات الماوردي تأكيده الشديد على طاعة ولي الأمر دون اعتراض وذلك بعد مبايعته

للخلافة، وعذره الخشية من (الفتنة) مستنداً في ذلك الى قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ } [٢٩] وعزز الماوردي رأيه بحديث الرسول (ص) ومفاده " سيليكم بعدي ولاة فيليكم البرُ ببره ، ولا فاجر بفجوره، فاسمعوا لهم واطيعوا في كل ما وافق الحق، فإن احسنوا فلكم ولهم، وإن اساءوا فلكم وعليهم [٣٠] " ونلاحظ هنا ان الماوردي يتغافل عما أراده الرسول وهي اقتران الطاعة لولي الأمر (بالحق) الذي يجب عليه اتباعه في حكمه لهم، فهو لم يشير الى ما وافق الحق في الحديث الشريف. ولكنه يضطر الى تجويز خروج الأمة على الحاكم ولكن بحدود وشروط محددة، حيث حصروها بحالتين. الأولى الجرح في عدالته واذا اتفقت كل الأمة على ذلك، والثاني نقص في بدنه، على أن يكون هذا النقص مؤثراً في عمله ويتمثل في زوال العقل أو ذهاب بصر وقليل من النواقص الأخرى المؤثرة، وهو لا يتجاهل اختلاف الفقهاء في هذا الشأن. ودون ذلك على الأمة كلها " تفويض الأمور العامة إليه من غير افتيات عليه ولا معارضة له ليقوم بما وكل إليه من وجوه المصالح وتدبير الأعمال " [٣١] فسياسة هؤلاء الحكام تعد شرعية، مادام الهدف المبغي الحفاظ على الدولة والخلافة وهيبتها فالغاية تبرر الوسيلة، والجدير بالذكر ان التأكيد على حقوق الولاة وطاعة الرعية لهم تجاوزت حدها في المؤلفات اللاحقة التي نحت هذا الاتجاه، فقد حملت الرعية وزر اخطاء الحكام الذين تحملوا وزر وأعباء المسؤولية بقبولهم السلطة وعلى الرغم من ارادتهم، فهم

يضحون بدنياهم وآخرتهم في سبيل الناس الذين هم بدورهم غير راضين عن حكامهم" فلولا ان الله تعالى يحول بين المرء وقلبه لم يرض عاقل بهذه المنزلة، ولا اختارها لبيب مرتبة" على رأي الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ) الذي استشهد بكلمة رسول الله (ص) "ما لكم ولأمرائي لكم صفو أمرهم وعليهم كدره" [٣٢] فمن حقهم إذن ولتحقيق ذلك اتباع كل الوسائل، وهي كلمة مشروعة في نظر اتباع السياسة الشرعية، وكما اتبعها حكام بني أمية وبنو العباس، وما طبقها ولاتهم في ولاياتهم من أساليب القتل والارهاب في اسكات الأصوات المعارضة، كما فعل زياد بن ابيه (ت ٥٣ هـ / ٦٧٢ م) والحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥ هـ / ٧١٤ م) في العراق، ولذلك اخذ وعاظ السلاطين بالتأكيد على طاعة ولاة الأمر، فهي فرض على الرعية، خاصةً وان (من اجلال الله اجلال السلطان عادلاً كان أو جائراً " [٣٣] فالله هو الذي اختارهم لحكم البلاد بقدره، ولا مرد من أمره، ردد يزيد بن معاوية وعنده رأس الامام الحسين (ع) ومحتجاً عليه ألم يقرأ قوله تعالى : { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [٣٤]، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك وهي ان الخليفة افضل للناس من الرسول (ص) [٣٥]، كما صرح بذلك الحجاج بن يوسف الثقفي يوماً وهو على المنبر بقوله وعلى

رؤوس الأشهاد: " أ رسولك أفضل أم خليفتك" [٣٦] ويقصد بذلك عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ / ٦٨٥ – ٧٠٥ م)، واقتدى بالحجاج آخر حيث قال بمجلس هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥ هـ / ٧٢٤ – ٧٤٣ م): " أمير المؤمنين خليفة الله وهو أكرم على الله من رسوله فأنت خليفة ومحمد رسول الله [٣٧] " إذن أي وسيلة تؤدي الى قوة السلطان ورهبة الرعية أمر مشروع عند أعوان السلطة الذين رددوا المقولة" سلطان عادل خير من سلطان ظلوم، وسلطان غشوم خير من فتنة تدوم [٣٨] ". وهذه هي من محتوى السياسة الشرعية التي أقرها أصحابها من بعض الفقهاء ورجال الدين للإفلات من قبضت التعاليم الاسلامية المتشددة في هذا الموضوع التي أكدت على أهمية العدل في الحكم ومضار الظلم، فالله لا يريد الظالمين " { قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [٣٩] لأن بالظلم خراب البلدان [٤٠] وهو أحد اسباب زوال الدول وخرابها، وهو ما جرى للأمويين والعباسيين، ثم ان السلطان لا يدوم اذا طال عدوانه [٤١].

٣. **الرعية** : وهم الغاية المرجوة في الفكر الاسلامي، فبإصلاحهم تصلح الاوطان، ويعمر البنيان، ويحفظ الأمن والنظام، وتتحقق بالأخير سعادة الانسان، ونقيض ذلك يدمر الانسان

الذي هو اعز جواهر الدنيا واعلاها قدراً وأشرفها منزلة، وهو العنصر المؤثر الأساس والمحرك للتأريخ، ولهذا خاطبه القرآن الكريم مباشرةً عن طريق آياته القرآنية، وهو يدعوه الى ترك الاصنام والتمسك بنواميس السماء وتطبيقها على الأرض، حتى لا يصيبهم العقاب، كما حدث لأقوام بادت وانقرضت، وبعد تهيئة اسباب دمارها، الوسيلة التي عن طريقها الوصول للغاية. " { وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً } [٤٢]، وكذلك { وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ }[٤٣]، أي ان أصب عليهم النعم وانسيهم الاستغفار بسبب الفرح الذي أوتي من الدنيا والغبطة بزهرتها " [٤٤] وكذلك بفتنتهم كقوله تعالى: { إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ } [٤٥] فبسبب الناقة التي ارسلت إليهم وعقرها ثم قتلهم.

وقد تكون الوسيلة الاكثر شيوعاً هي تولية حكام ظلمة على من يريد الله الانتقام منهم، وقد اسهبت مصادرنا وتراثنا الاسلامي في شرح ذلك، وربطت الأسباب بالمسببات، وبينت ان المسؤولية تقع على الراعي والرعية سوية، قال تعالى: { وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً } [٤٦] جزاءً للمجتمع الفاسد، وقيل في ذلك " اعمالكم عمالكم ، كما تكونوا يولى عليكم " [٤٧]

فالأجدر بعامل المعصية أن لا ينكر العقوبة، وما يأتي على الناس من شر من شؤم الذنوب. أوصى الله تعالى أنبياء بني اسرائيل "اذا استعملت عليكم خياركم فقد رضيت عنكم، واذا استعملت عليكم شراركم فقد سخطت عليكم" [٤٨] فهو استحقاق مشروع يصيب الرعية إن أساءوا فظلموا أنفسهم، قال تعالى: { فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا }[٤٩]، فبسبب أعمالهم سلبت خيراتهم وانعدم الخصب والأمن، فحلت المصائب عليهم، ودمرت بيوتهم، وذلك بسبب ظلمهم لأنفسهم { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ } [٥٠]، فلذلك كثيراً ما كان ولاة الأمور يحملون الرعية السبب في ما آلت إليه أمورهم من ضيق وحسرة ، حمل الامام علي (ع) رعيت مسؤولية ذلك وما حل بهم من اختلاف وفتن، وقال انهم لم يكونوا الرعية الصالحة التي عرفت قبلاً [٥١]. واتهم عبد الملك بن مروان رعيته بأنهم لم يسيروا في الولاة ولا في أنفسهم بسيرة السلف الصالح [٥٢]. فالرعية ان استقامت استقامت امورهم، خاصةً وانهم ايضاً يتحملون نتائج اختيار الوالي المتولي عليهم، فالاختيار يقع طبقاً لنتائج أعمالهم وطريق سلوكهم، فإن احسنوا، يبارك الله فيهم، فيولي عليهم من يعدل بهم، وإلا يتولى عليهم من يظلمهم، فيقودهم للهلاك وتعطيل مصالحهم وتحميلهم فوق طاقتهم، كالجباية الجائرة المفروضة عليهم، التي تؤدي الى إفقارهم وانعدام القوت لديهم ومن ثم ترك أوطانهم، الأمر الذي يضعف الاجناد ويطمع الأعداء

في البلاد [٥٣]. وكل ذلك بسبب سوء عملهم الذي جلب لهم الخاصة لتهلكهم، والجدير بالذكر أنه كثيراً ما كان هؤلاء الخاصة في منأى فيما يجري لعوامهم، حيث تهلك العامة بعمل الخاصة، ولا تهلك الخاصة بعمل العامة، قال تعالى : { وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [٥٤] واذا ما حذر الله تعالى هنا من الفتن التي تصيب العامة، فإن ذلك لا يعني اغفال الحاكم ودوره وعمله، بل ان الرعية "تفسد بفساد الوالي وتصلح بصلاحه. [٥٥] " وبهذا المعنى حذر الفقيه سفيان الثوري ابو جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨ هـ / ٧٥٤ – ٧٧٥ م) من انه صلح صلحت الأمة وإن فسد فسدت وذهبت البركة. فسرائر الملوك وعزائمهم، ومكنون ضمائرهم يتعدى في الرعية، ان خيراً فخيراً وإن شراً فشر [٥٦]. فالعلاقة مصيرية ومتبادلة بين الراعي والرعية، وكلاهما عوامل مؤثرة في المجتمع، ولنا في التاريخ تجارب وعبر، فما ضياع الأندلس إلا بسبب حجب حكامها الأموال فضيعوا الرجال، ولم يدركوا ان بيت رجال خيرٌ من بيت مال، وان في جمع المال وحجبه عن الرعية تقوية للأعداء [٥٧] وكذلك ما جرى للمسلمين حين ظهر عليهم المغول وأزال دولة الاسلام عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م بسبب حجب الأموال عن العوام.

ان الفكر الاسلامي غني بالتجارب والارشادات والعبر وكلها تهدف الى اصلاح الراعي لأن بإصلاحه تصلح الرعية والعكس صحيح، ولكن الراعي يتحمل المسؤولية الأكبر في ذلك، لأن بصلاحه لا تصلح الرعية فقط بل يصلح زمانه [٥٨]، فتقاد إليه العوام وتتبعه، وسارت على نهجه، فالناس على دين ملوكهم، فكيف يكن هؤلاء يكونوا، فإن احسن فعله، فعلوا مثله، وإن أساء فعله، ساءت أفعالهم، وبذلك يسوء ذلك الزمان وتخرب الأوطان، ولذلك حذر من مجيء " دولة الصبيان " أو كما سماها المأمون العباسي (١٩٨ – ٢١٨ هـ / ٨١٣ – ٨٣٣ م) بدولة " السفلة [٥٩]" التي يسود فيها الجاهل وعديم الجاه وفي ذلك قيل:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ** ولا سراة اذا جهالهم سادوا [٦٠]

ولذلك وضعت شروط لتولية القادة والولاة وهي كثيرة، منها ان لايقلد الاعمال لطالبها والراغب فيها، لأنه طامع في مغنمها، فهو (لص في ثوب ناسك)[٦١]. ومن أهل الشرف والخبرة والحكمة ومن كان أهلاً لها، قيل في ذلك:

ما قادها للخير إلا مجرب ** عليم بإقبال الأمور كريمها
وما كل ذي لبٍ يعاش بفضله ** ولكن تدبير الأمور حكيمها [٦٢]

وكل ذلك هدفه سعادة الانسان وادامة العمران، وهذا هو منطق التاريخ في الفكر الاسلامي.

خاتمة البحث

وفي ختام البحث نسجيل أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة التي يمكن إجمالها بما يلي :

١. في الوقت الذي لم يكن الانسان ذا تأثير في احداث التاريخ في المنهج اليهودي للتاريخ حيث ان مصيره محتوم ولا سلطة له على تبديله، فكل الأحداث تدور وترجع الى نقطة البداية بحركة دائرية (التفسير الدوري للتاريخ) نرى ان المنهج الاسلامي في ذلك يختلف اختلافاً جوهرياً حيث للإنسان تأثيراً كبيراً في احداث التاريخ (سواء كان حاكماً أو محكوماً) وان النشاط الاجتماعي الانساني في الفكر الاسلامي واضح وبارز.

٢. مع اعتراف النظريات الفلسفية الحديثة في تفسير التاريخ واحداثه بدور الانسان في صنع التاريخ، فإنه يبقى ثانوياً وخاضعاً لتأثير عوامل اخرى، كالطبيعة والجغرافية والحضارية والمادية وغيرها، فنشاطه وحركته تتحدد وبتأثير هذه العوامل. وعلى النقيض من ذلك يرى الفكر الاسلامي ان دور الراعي والرعية أساسي وبقية العوامل ثانوية بالنسبة إليه.

٣. مصطلح (الراعي) يقترن بالتاريخ الاسلامي بمصطلح (البطل) وهم الرسل والملوك. والرسل لا يمكن تقليدهم أو التشبه بهم في تصرفاتهم وأعمالهم، لأنهم موجهون من السماء، أما الملوك فهم بشر يمكن تقليدهم.

٤. الغضب الإلهي هو الذي يحدد مصير التاريخ، ويكون الدمار والزوال والهلاك أما بصورة مباشرة كما جرى لأقوام بادت وانقرضت، أو بصورة غير مباشرة وذلك بتهيئة اسباب خرابها، وبوسائل عديدة.

٥. العلاقة صميمية ومترابطة بين الراعي والرعية، فالراعي ان صلح صلحت الرعية، والعكس صحيح، حتى ان الراعي هو نتاج سلوك الرعية ونوعيتهم فإن كانت صالحة فرزت والياً صالحاً والعكس صحيح.

الهوامش

١. الملاح ، المفصل في فلسفة التاريخ ، ص ٢٢ .
٢. المفصل الضبي ، امثال العرب ، ص ٥٠ .
٣. ابن جمانة الحموي ، مختصر في فضل الجهاد ، ص ١١٣ .
٤. المفضل الضبي ، امثال العرب ، ص٦٢ – ٦٨ ، ابن سلام الجمحي ، طبقات الشعراء ، ج ١ ، ص٢٥.
٥. الملاح ، المفضل ، ص ٢٣٠ .
٦. الأحمد ، المدخل الى تاريخ العراق القديم ، ق ١ ، العراق القديم ، ج١ ، ص ٧–٨ ، ص ٣٣٦ – ٣٣٧.
٧. الملاح ، المفضل ، ص ٢٨٤ .
٨. الأحمد ، المدخل الى تاريخ العراق القديم ، ص ٢٧٧ – ٢٧٨ .
٩. العهد القديم ، سفر الجامعة ، ١ صحاح ١ .
١٠. المصدر نفسه .
١١. المصدر نفسه .
١٢. المصدر نفسه ، ١ صحاح ٢ .
١٣. وذلك لعدم تغطية والده نوح (ع) الذي كان (مخموراً وعورته مكشوفة) ، بل وخرج ضاحكاً الأمر الذي دفع سام ويافث لتغطية والدهم نوح (ع) سفر التكوين ، الإصحاح ٩ .
١٤. المصدر نفسه .
١٥. الأنعام١٦٤.
١٦. ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨٤ .
١٧. التثنية ، صحاح ٣ : ٢٢ .
١٨. التثنية صحاح ٩ : ٣ . ، ٢٠ : ٤ . ، يشوع ٢٣ : ٥ .
١٩. التثنية صحاح ٢ ، سفر ١٤ .

٢٠. التثنية ، صحاح ٢٧ – سفر ٣ .

٢١. على اثر تنصر قسطنطين الأكبر (٣٢٤ – ٣٣٧ م) باني القسطنطينية (انظر : المسعودي ، التنبيه والاشراف : ١٣٥ . ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص ١٨٩ .

٢٢. ومن النظريات التي وضعت عن الحرب المشروعة نظرية (القديس أوغسطين) وتبعها (سانت توماس الأكويني) ، ينظر : سلطان ، القانون الولي العام في وقت السلم ، ص ٦٠١ وما بعدها .

٢٣. الذاريات٥٦ .

٢٤. الأعراف٩٦.

٢٥. الإسراء١٦ .

٢٦. هود١١٧.

٢٧. العاملي تفسير مختصر الميزان ، ٢٣٤ .

٢٨. الملاح ، المفضل ، ص ٣١٣ .

٢٩. النساء٥٩ .

٣٠. الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ٥ .

٣١. المصدر نفسه ، ص ١٥ .

٣٢. سراج الملوك ، ص ١٠٦ .

٣٣. المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

٣٤. آل عمران / ٢٦ . وينظر الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٤٦٤ .

٣٥. الجاحظ ، رسائل الجاحظ في بني أمية ، ص ٩٨ .

٣٦. المقريزي ، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ، ص ٤٣ .

٣٧. المصدر نفسه ،

٣٨. اليعقوبي ، تاريخ / ج٢ / ص ٢١١ .

٣٩. البقرة / آية ١٢٤ .

٤٠. ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٩ .

٤١. الثعالبي ، الفوائد والقلائد ، ص ١٤ . ، الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ٢٨٩ .

٤٢. الاسراء / ١٦ .

٤٣. الاعراف / ١٨٢ – ١٨٣ .

٤٤. الطرطوسي ، سراج الملوك ، ص ٢٤٥ .
٤٥. القمر / ٢٧ .
٤٦. الانعام / ١٢٩ .
٤٧. الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ٢٧٢ .
٤٨. المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .
٤٩. النمل / ٥٢ .
٥٠. هود / ١٠١ .
٥١. الطرطوشي / ص٢٧٢ .
٥٢. المصدر نفسه / ٢٩٠ .
٥٣. المصدر نفسه / ص ٢٩٠ .
٥٤. الانفال / ٢٥ .
٥٥. الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ١٠٣ .
٥٦. المصدر نفسه ، ص ١٠ و ص ٢٧٤ .
٥٧. المصدر نفسه ، ص ٢٩٣ .
٥٨. المصدر نفسه ، ص ١٤٢ .
٥٩. المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ .
٦٠. المصدر نفسه ، ص ١٣١ .
٦١. المصدر نفسه ، ٣٣٣ .
٦٢. المصدر نفسه

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) ط ٢ ، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط (القاهرة – ٢٠٠٢ م)
- ابن ألأثير ، علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) ، الكامل في التاريخ ، دار الفكر (بيروت ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م)
- الاحمد ، سامي سعيد ، المدخل الى تاريخ العراق القديم (بغداد ، ١٩٧٨ م)
- الثعالبي ، عبد الملك محمد بن اسماعيل (ت : ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) ، الفوائد والقلائد ، قدم له علي الخاقاني (بيروت ، لا ت)
- الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) رسالة الجاحظ في بني أمية (ليون – ١٨٨٨ م).
- ابن جماعة الحموي ، بدر الدين محمد بن أبي اسحاق (ت ٨٣٣ هـ / ١٣٣٣ م)
- مختصر في فضل الجهاد ، تحقيق اسامة ناصر النقشبندي . (بغداد ، ١٩٨٣ م)
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) ، مقدمة ابن خلدون ، دار القلم (بيروت ، ١٩٧٨ م) .
- ابن سلام الجمحي ، محمد (ت : ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م) ، طبقات فحول الشعراء ، (القاهرة ، ١٣٤٩ هـ / ١٩٧٤ م)
- سلطان حامد ، القانون الدولي العام في وقت السلم ، ط٦ (القاهرة ، ١٩٧٦م)
- الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) ، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف (القاهرة ، لا ت)
- الطرطوشي ، أبو بكر محمد بن الوليد (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) سراج الملوك (بيروت ، ١٩٩٥ م).
- العاملي ، علي عاشور ، مختصر تفسير الميزان (بيروت ، ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م)
- المسعودي ، علي بن الحسين (ت : ٣٤٦ هـ / ٩٦٧ م) ، التنبية والاشراف، لجنة تحقيق التراث (بيروت ، ١٩٨١ م) .
- المفضل الضبي ، المفضل بن محمد (ت ١٧١ هـ / ٧٨٧ م) ، أمثال العرب ، تحقيق الدكتور احسان عباس (بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م)
- المقريزي ، احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ٤٤١ م) النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم (ليون ، ١٨٨٨ م)
- الملاح ، هاشم يحيى ، المفصل في فلسفة التاريخ (لبنان ، ٢٠٠٧ م)

- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب (كان حياً في سنة ٢٩٢ هـ) ، التاريخ ، النجف الأشرف (١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م)